ثقافة الحوار

عبد العزيز الخضراء

تشكل ثقافة الحوار الإطار العام ومقدمة لبناء أسس الديمقراطية، وتدخل هذه الثقافة ضمن اللبنة الأولى لبنيان قاعدة احترام الرأي والرأي الآخر، ومفهوم ثقافة الحوار يحيلنا إلى قضية معرفية للبحث عن مفهوم هذا التعبير، وما هي مقدماته والخطوط التي يتم تأسيس تلك الثقافة وفقها، والحوار يعني تبادل وجهات النظر والإصغاء إلى وجهة النظر الأخرى بطريقة تنم عن احترام وتدقيق، مستنداً على التعددية، مع اعتبار أن جميع وجهات النظر محترمة، إلا أن الحقيقة نسبية وكل منا يملك جزءاً لا يتجزأ منها، وإن الحقائق دائما متغيرة تبعًا لظروف الزمان والمكان، ويشكل العقل الأساس الذي يعتمد عليه في منطق الحوار.

ولكي يصيب حديثك مع الآخر الهدف، ينبغي عليك أن تمسك بناصية أهم فنون الإقناع والتأثير، وهو فن الحوار، وأعتقد أن فن الحديث، وفن التواصل، وفن الحوار، وهم جميعاً عناصر لمنظومة واحدة يعزز بعضها بعضاً.

والحوار في دلالته لا يحمل صفة الخصومة والجدال، والمحاور الجيد ليس ذاك الذي يسعى إلى إقناع من يحاوره بوجهة نظره ليقف بجانبه، وإنما هو الذي يحاول أن يوجه نظر محاوره لما لا يراه، فيكشف له، ويعرفه على أمور كانت غامضة عليه أو لا يعرفها من قبل، فالمتحاوران يطلبان الوضوح والوصول لمعرفة الحق والحقيقة.

ولغة الحوار ترفض الانفعال الذي يحوله إلى جدل عقيم ومقيت تحجب سحبه القاتمة وضوح الرؤى التي تتسم بالانسياب الواضح للمرامي البعيدة من الحوار، لتوفير مناخ مريح معطاء يولد الأفكار والقناعات التي تتصف بالرفق والسداد والحكمة.

لكل ما أسلفنا يحسن بنا التعرف إلى المقصود من ثقافة الحوار، ما مقوماتها؟ وما معوقاتها؟

أ - ما المقصود من ثقافة الحوار؟

:

يقصد بثقافة الحوار قبول الآخر كما هو بما هو عليه من اختلاف، واحترام التعددية

الفكرية، والاجتماعية، والدينية، والمذهبية، والسياسية بشكل طلق، وتفعيل قيم التسامح ونقد الذات والاعتراف بالخطأ والاعتذار عنه.

وأقصد بالثقافة هنا معناها العام المتمثل بأن ننظر إلى البشر والأشياء من حولنا بالمنظار نفسه الذي ينظر فيه الإنسان لذاته؛ فالآخر، هو المغاير للذات أيّاً كان سبب المغايرة.

وثمة تساؤل يطرح نفسه: هل الاختلاف نعمة أم نقمة؟ ونجيب بأن الله شرع الخلاف بقوله:)ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم([سورة هود: 119]، يقول المفسرون: خلقهم ليختلفوا ويتنافسوا في إعمار الأرض إثراء للحياة وترقية للإنسان والمجتمعات، ومعنى ذلك أن القرآن جعل الاختلاف حقيقة كونية وإنسانية ثابتة ومستمرة مدى الحياة، وعلى هذا نستطيع القول إن ثقافة الحوار هي التي تعصمنا من الاختلاف المذموم بالتوجه نحو المحمود، وتعلمنا من إدارة الاختلاف مما يجعل من التمايزات بين البشر مصدر ثراء وتنوع وبهجة، وأداة للتفاعل الحضاري الخلاق تنتج «التعارف» وتبادل الخبرات والتجارب والمعارف بين بعضها بعضاً؛ يقول تعالى:)يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا([الحجرات:11]. وثقافة الحوار تفرض علينا الحوار العقلاني وسيلة حضارية لإدارة الاختلاف في الآراء؛ سواء بتفصيل حالة الحوار الداخلي بين القوى والأطياف المجتمعية، من دون إقصاء أو تخوين، أو تنشيط حالة الحوار الخارجي لإزالة سوء الفهم والظن وتغيير الصورة النمطية السائدة التي كوّنها كل طرف تجاه الآخر، وهي في الحقيقة صورة ذهنية زائفة، يمكن تصحيحها وتسوية مسارها لتجنب حالة الصدام والمواجهة.

ب - مقومات ثقافة الحوار:

1 - ثقافة الكراهية: وهي أن ينشغل الفرد بعيوب الآخر ويضخمها بهدف الإثارة والحشد من خلال التركيز على سلبيات الآخر وتجاهل إيجابياته، وفضلاً عن أنه يجافي منطق العدل والإنصاف الذي أمرنا به في قوله تعالى)ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا([سورة المائدة:الآية 8]، فإنه لا يؤسّس لثقافة حوار ناجح، كتلك التي ننادي بها والتي تنشغل بعيوبها أكثر من البحث عن عيوب الآخر.

2- إحسان الظن بالمخالف: وهذا يعني نبذ نظريات التآمر والتربص والغزو الفكري؛ لأنها قائمة على أوهام سيئة ليس لها أساس موضوعي إلا الظن، وهو لا يغني من الحق شيئاً.

3 - تجنب ما فيه تشكيك بمعتقد الآخر.

4 - حسن الإصغاء للآخر: وقد بينت دراسة أن المجتمع العربي تغيّب عن ثقافة أو فن الإصغاء للآخر؛ فالكل يقاطع والكل يتكلم ويصرخ في وقت واحد، ولعل بعض البرامج الحوارية في الفضائيات خير دليل.

5 - الإيمان بأن الحوار ليس حِكراً على مذهب: فالدين أكبر وأرحب من أن يُختزل في مذهب أو تفسير أو اجتهاد واحد، وأهم معوقات انتشار ثقافة الحوار فيه يعود إلى سبب رسوخ الثقافة الإقصائية والتمييزية في البنية الاجتماعية تعليماً وتربية وخطاباً دينياً ودنيوياً وإعلامياً وثقافياً وتشريعياً. وقد ميز الله عز وجل الإنسان بالعقل والعمليات الذهنية والتخاطبية التي تمكنه من إجراء الحوار والتواصل مع الآخرين، والحوار هنا يعني القدرة على التفاعل المعرفي والعاطفي والسلوكي مع الآخرين، وهو ما يميز الإنسان عن غيره؛ ما سهل تبادل الخبرات والمفاهيم بين الأجيال، ويتم التواصل من خلال عمليتين رئيسيتين وهما: الاستقبال (الاستماع)، الإرسال (التحدث).

وتم تنسيق هاتين العمليتين كما يلي:

1 - أدب الاستقبال (الاستماع):

يُعدّ الاستماع من أهم شروط التواصل الناجح مع الآخرين، ويفيد الطرفين في استمرار الحوار والتواصل، وشعور المتحدث بارتياح واطمئنان، وشعور المستمع بالفهم الجيد والإلمام بموضوع الحوار، مما يمكنه من الرد المناسب؛ ولتحقيق الاستماع الجيد لا بد من توافر شروط منها:

- إقبال المستمع نحو المتحدث.
- عدم إظهار علامات الرفض والاستياء.
- عدم الانفعال أو إعطاء ردود فعل سريعة ومباشرة قبل إنهاء المتحدث كلامه؛ لكي يستمر المتحدث في الإرسال ويستمر في التواصل.

2 - أدب الحديث (الإرسال):

ويكون بالتوجه نحو المستمع، وعدم المبالغة في إظهار الانفعال وحركات الأيدي والتوسط في سرعة الرد، مما يؤثر على استمرار الحوار لإيجابية الموضوع وجاذبيته وراحة المستمع له.

3 - مستويات الحوار:

المستوى الأول: حوار داخلي مع النفس بمحاسبتها وحملها على قول الحق وفعله، وإن بين النفس الأمارة بالسوء والنفس اللوامة شعاعاً بسيطاً يوصل لحالة الاطمئنان.

المستوى الثاني: حوار بين أفراد المجتمع عملاً بمبدأ: نصف رأيك عند أخيك، ومبدأ المحافظة على وحدة الصف تقتضي أن نتعاون فيما اتفقنا أو تعارفنا عليه، ويعذر بعضنا

البقية ص٢٢

العولمة النقدية نقطة الانطلاق: جنيف

د.عبد النبي اصطيف

يشير يان م. بروكمن Jan M. Broekman في كتابه البنيوية الصادر عام 1974، ومن خلال العنوان الفرعي للكتاب موسكو- براغ- باريس، إلى مسيرة البنيوية بوصفها نشاطاً عقلياً محدّداً استخدم مفاهيم ابستمولوجية أساسية في الفن والأدب والعلم والفلسفة، وحمل معه تغييرات سريعة وهائلة في المشهد العلمي والمعرفي والثقافي والفني في أوربة والعالم. ولكنه من ناحية أخرى يُغفل محطة أساسية في هذه المسيرة، هي نقطة انطلاقها نحو العالم، هي جنيف، وجامعتها على وجه التحديد؛ حيث عاش ودرس ودرّس مؤسس اللغويات الحديثة، والأب الأول للبنيوية والسيميائية، فرديناند دوسوسير (1857-1913)، الحاضر وعلى نحو شمولي وعميق في مختلف وجوه هذا النشاط. ذلك أن البنيوية «ليست مذهباً فكرياً بمقدار كونها منهجاً للدراسة، أو لنقل طريقة محددة في مقاربة الأمور والظواهر والأشياء، تحاول عقلنة المعلومات المتصلة بحقل معرفي ما وتشكيلها في نظام يحدد علائقها فيما بينها، مثلما يحدد وظائفها التي تستند إلى مواقعها في هذا النظام الذي يرتكز على مفهوم العلامة اللغوية Linguistic Sign. فكل كلمة في اللغة -أية لغة- هي علامة Sign، واللغة -أية لغة- هي آلة تعمل من خلال كونها نظاماً من العلامات «Signs System»، والعلامة ليست غير وحدة بوجهين، يشبهان إلى حد بعيد وجهي العملة النقدية، أو وجهي طبق من الورق. إنها تدين بوجودها لمكوّنها الصوتي أو الرسمي Graphic، ومكونها الذهني، أو لما يدعوه دوسوسير بالدال Signifier، والمدلول Signified، وتدين بوظيفتها لموقعها في هذا النظام -النظام اللغوي أو ما دعاه دوسوسير بـ Langue، الذي تستند إليه الممارسة الفردية للغة، والتي تتجسد عادة بالإنشاء أو الكلام الفردي Parole.

وربما كان من المفارقة حقاً أن فرديناند دوسوسير لم يُعرف في حياته إلا بعمله في فقه اللغة، ولم ينشر في أثنائها غير كتابين هما: «دراسة لنظام حروف المد في اللغات هند-أوربية» الذي ظهر عام 1878م، ورسالته لدرجة الدكتوراه عن «استخدام الجر في اللغة السنسيكريتية» التي ظهرت عام 1880م. أما كتابه مساق في اللغويات العامة فقد نشر بعد وفاته بثلاثة أعوام، وبعناية اثنين من تلامذته هما شارل بالي Charles Bally وألبر سيشيه Albert Sechehaye، قاما بصياغته وتحريره من مدونات طلابه في جامعة جنيف الذين حضروا محاضراته بين عامي 1907 و1911م، علامة وفاء لشيخهما، وقدما بذلك خدمة جلّى للإنسانية كانت وراء ما شهده القرن العشرون من تطورات هائلة في دراسة اللغة الإنسانية، أو في علوم اللسانيات من جهة، وما خلفته هذه التطورات من ثورة في دراسة علوم ومعارف أخرى من مثل الأنتروبولوجيا (كلود ليفي شتراوس)، والفلسفة (ميرلوبونتي)، وعلم النفس (جاك لاكان ومصطفى صفوان)، وعلم الاجتماع (ألن تورين وميشيل فوكوه)، والنقد الأدبي (لوسيان غولدمان ورولان بارت وتزيفتان تودوروف وجوليا كريستيفا وجيرار جينيت) وغيرها، تدين جميعها بما أنجزته لهذه المحاضرات التي قصد بها دوسوسير توضيح بعض المسائل التي تواجه اللغويين، ولم يكن في ذهنه تقديم منهج جديد في دراستهم للغة، ولكن الذي حدث أن القرن العشرين بكامله قد تأثر بتوضيحاته هذه ومفاهيمه التي انطلق منها فكان لنا منها تركة اغتنت الإنسانية بها، حتى عندما عملت على نقض بعض مكوناتها (على يد جاك ديريدا صاحب النزعة التفكيكية وغيره).

وربما كان من أهم ما رسخته هذه التركة في ذهن علماء اللغة أن اللغة نظام علامات مغلق، وأن كل علامة فيه تكتسب دلالتها من موقعها في هذا النظام الذي يعمل بمبدأ الاختلاف لا مبدأ المشابهة، وأن النظام اللغوي هو ما يعنينا في دراستنا للغة، وأن علينا ألا نكتفي بدراسة اللغة تاريخياً؛ فالمنظور التطوري Diachronic لم يستطع أن ينهض بالإجابة على تساؤلاتنا المتصلة بآلية عمل اللغة في مستوياتها المختلفة، ولذا فإن علينا أن ندرسها دراسة آنية؛ أي من منظور آني Synchronic ينظر إلى حالة اللغة الآن، ويسعى إلى اكتشاف نظامها الذي يحكم إنتاج الإنشاءات الفردية لمستخدميها.

وقد التقط كل من قرأ كتاب دوسوسير هذه الأفكار والمفاهيم، وسعى إلى استخدامها في ميدان تخصصه واهتماماته بغرض تطوير مقاربات جديدة لها، يتمكن من خلالها من الارتقاء بالحقل المعرفي الذي ينتمي إليه وبموضوعه، وبعبارة أخرى يتمكن من فهم موضوعه من خلال دراسته دراسة علمية منظمة، دراسة تقوم على اكتشاف النظام الكلي الذي يحكمه، وفهم شبكة العلاقات التي ينطوي عليها. هكذا ولدت البنيوية منظوراً علائقياً إلى الثقافة الإنسانية، وإلى منتجها في انفراده وفي اجتماعه، ساعية إلى فهمها وفهمه من خلال موقع كل منهما في النظام الذي يدوران في فلكه علامة لها وجهاها: الدال والمدلول، اللذان تربط بينهما علاقة اعتباطية قائمة على تواضع إنساني أساسه الإرادة وغايته التفسير والفهم.